



كان أهل نينوى في أرض الموصل من العراق، لا يختلفون عن غيرهم من الأمم الغابرة في المعتقد والتفكير، إلا بما انطوت عليه البيئة، أو فرضته سُبُل العيش.. فقد عبدوا الأصنام، ووّقعوا في حماة الجهل والشرك، حتى إنشلّت حياتهم الفكرية عن إدراك الحقائق السامة، والسمو إلى المُثُول العليا..

ولئن كانت حياة بني البشر في تلك الأزمان، قد قامت على الوثنية، إلا أنَّ إِنْ سُبحانه وتعالى، وهو خالق السماوات والأرضين، وما فيهنَّ، لا يترك عباده يهيمون في مهاوي الصلاة والبغى، وفي دياجير الظلمة والضياع. فقد تجلَّت حكمتهُ، وعلَّاتُ قدرته ببعث النبيين والمُرسَلين، هُداةً لأهل الأرض، ورأفةً بالخلق.. وحتى لا يكون لأهل نينوى حجَّة على خالقهم كمثل أهل الأرض كلهم، فقد بعثَ فيهم نبيًّا، يحمل إليهم رسالة التوحيد، ويدلهم على طريق الإيمان الصحيح.. جاء نبي إِنْ يومنس (ع)، يدلُّ لبني قومه بحجَّة ملؤها الحكمة والبيان، ويدفع ببيَّنة قواها البرهان.. جاء يُحذِّرهم من من هو النفس حتى لا يسلكوه فيجمحُ بهم إلى الصلاة، ويدعوهم إلى سلوك طريقٍ إنهم اتَّبعوه يقودهم إلى الهدایة.. اعتمد في دعوته على دلائل العقل والمنطق، وعلى مشاعر النفس والوجودان.. فأبان للقوم أن يتفكَّروا

بما هم عليه من الخلق، وبأن ينظروا بما حولهم، وبكل ما يحيط بهم، فيدركون بأنّه وراء هذا الكون، خالقاً ومُدبّراً، ويؤمنوا بأنّه هذا الخالق واحدٌ لا شريك له، يختصُّ وحده بالعبادة، ولإسمه التقدير والتقديس، ولمجده الإجلال والتعظيم.. إنها دعوةٌ للعقول والقلوب. فمن شاء اهتدى وظفر، ومن جهل ضلّ وخسر.. وأخذ يذكّرهم بأنّه قد بعثه رحمةً بهم، ورأفة بأحوالهم، كي يدلّهم على آثار رحمة ربّه التي هي كفيلةٌ بأن تهديهم إلى نعّمه وآلائِه، وإلى حكمته وعليائه، فاستَمَعَ القومُ ليونس، وهو يقول كلاماً لم يألفوه من قبل.. ولكنهم دُهشوا وهو يدعوهم لعبادة إله لا يرونـه، وذُهّلوا وهو يُسْفِـه الآلة التي كانوا يعتكفون عليها بعد آباءـهم وأجدادـهم.. فلم يتقدّـلوا منه ذلك، وكبدُـر عليهم أن يكون هذا الداعية منهم وهو يخرج على المألوف من معتقدـاتهم، وينقمُ على الموروث من عاداتـهم وتقاليدـهم.. سيمـا وأن يوـنس من العامةـ فيـهمـ، لا من أصحابـ البيوتات الرفيعةـ، ولا من ذوي الشأنـ والنفوـذـ.. استغربـ أهلـ نينوىـ لهذاـ الرجلـ تنصيبـ نفسهـ رسولاًـ عليهمـ مدـ عـياًـ هـداـيـهمـ، فأـظـهـرـواـ لهـ العـداـوةـ، وجـاهـرـوهـ بالـسـفـاهـةـ، وـهـمـ يـقـولـونـ: - هـذـيـانـ وبـهـتـانـ ماـ تـدـعـيهـ ياـ يـوـنـسـ.. أـنـتـخـلـىـ عـماـ نـشـأـنـاـ عـلـيـهـ فـيـ هـذـهـ الـدـيـارـ؟ـ إـلـىـ دـيـنـ اـبـتـدـعـتـهـ وـتـرـيـدـ أـنـ تـجـاهـدـناـ فـيـهـ؟ـ!ـ.. رـأـيـ يـوـنـسـ أـنـ يـدـفـعـ التـهـمـةـ الـتـيـ يـصـمـونـهـ بـهـ، وـهـمـ أـوـلـىـ بـالـإـتـهـامـ مـاـ يـدـعـونـ عـلـيـهـ زـوـرـاًـ وـبـهـتـانـاًـ، فـارـتـفـعـ صـوـتـهـ مـنـدـ دـاـ بـجـهـالـتـهـ وـصـرـخـ فـيـهـ: - يـاـ قـوـمـ اـرـفـعـواـ غـشاـوةـ التـقـلـيدـ عـنـ عـيـونـكـمـ، وـمـزـ قـوـاـ نـسـيجـ الـأـوـهـامـ عـنـ عـقـولـكـمـ، وـإـنـيـ كـفـيلـ بـأـنـ كـمـ سـتـجـدـونـ هـذـهـ الـأـصـنـامـ الـتـيـ تـتـوجـهـونـ إـلـيـهـاـ صـبـاحـ مـسـاءـ تـافـهـةـ، وـأـنـتـمـ تـتـوـهـمـونـ فـيـ الـإـعـتمـادـ عـلـيـهـ لـقـضـاءـ الـحـاجـاتـ فـإـنـهـ لـاـ تـدـفـعـ عـنـكـمـ شـرـاًـ، وـلـاـ تـجـلـبـ لـكـمـ نـفـعاًـ.. إـنـهـ لـاـ تـشـفـيـ مـرـيـضاًـ، وـلـاـ تـرـدـ ضـالـاًـ.. وـهـيـ لـاـ تـخـلـقـ مـوـلـودـاًـ، وـلـاـ تـُحـيـيـ مـيـتاًـ.. يـاـ قـوـمـ!ـ.. مـاـ لـكـمـ تـُعـرـضـونـ عـنـ دـيـنـ يـأـمـرـ بـتـقـوـيـمـ أـمـرـكـمـ، وـاسـتـقـامـةـ أـوـضـاعـكـمـ، وـرـفـعـ أـخـلـاقـكـمـ؟ـ!ـ.. وـمـاـ بـالـكـمـ تـرـفـضـونـ مـاـ فـيـهـ صـلـاحـ الـأـمـةـ وـالـفـرـدـ فـيـكـمـ، وـيـفـضـيـ إـلـىـ شـاطـئـ الـأـمـانـ فـيـ حـيـاـتـكـمـ؟ـ.. لـقـدـ شـاءـ يـوـنـسـ أـنـ يـجـادـلـهـمـ بـالـحـقـ، وـأـنـ يـُبـيـّـنـ لـهـمـ طـرـيقـ الصـوابـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـظـفـرـ مـنـهـ إـلـاـ بـقـنـاعـ الـجـاهـلـينـ، وـلـمـ يـغـنـمـ إـلـاـ بـجـدـالـ الـمـتـعـدـتـينـ.. لـقـدـ أـنـكـرـواـ عـلـيـهـ دـعـوـتـهـ، وـرـاحـواـ يـؤـلـلـبـونـ الـقـرـيبـ وـالـبـعـيدـ، حـتـىـ يـحـقـرـوـهـ وـيـذـمـهـ.. لـقـدـ رـأـيـ يـوـنـسـ الـقـوـمـ وـهـمـ يـعـمـدـونـ إـلـىـ النـيلـ مـنـهـ بـالـتـهـكـمـ وـالـسـخـرـيـةـ.. وـيـقـومـونـ عـلـىـ أـذـيـتـهـ بـالـاحـتـقـارـ وـالـإـذـلـالـ.. إـنـهـمـ يـرـيدـونـ أـنـ يـُظـهـرـوـهـ لـلـمـلـأـ مـنـاـوـئـاًـ لـمـعـقـدـاـتـهـ بـادـعـاءـ كـاذـبـ، وـخـارـجاًـ عـلـىـ عـادـاتـهـ وـتـقـالـيدـهـ.. بـرـأـيـ فـاسـدـ.. وـتـمـادـواـ فـيـ مـحاـوـلـاتـهـ بـهـ، وـهـوـ يـتـحـمـلـ كـلـ مـاـ يـبـدـونـ وـمـاـ يـضـمـرـونـ.. وـلـمـ يـأـبـهـ لـمـاـ يـفـعـلـونـهـ بـهـ، وـظـلـلـ عـلـىـ دـعـوـتـهـ؛ـ وـلـكـنـهـ وـهـوـ يـرـاـهـمـ عـلـىـ الـضـلـالـةـ يـصـرـّـونـ، قـامـ يـحـذـرـهـ مـنـ سـوءـ عـاقـبـةـ مـاـ يـفـعـلـونـ، فـقـالـ لـهـمـ: - يـاـ قـوـمـ!ـ لـقـدـ دـعـوـتـكـمـ وـنـصـحتـ لـكـمـ، وـقـدـ جـادـلـتـكـمـ بـالـتـيـ هـيـ أـحـسـنـ، فـإـذاـ كـانـتـ دـعـوـتـيـ تـصـلـ إـلـىـ قـرـارـةـ نـفـوسـكـمـ كـانـ الـخـيـرـ الـذـيـ أـرـجـوـهـ وـالـإـيمـانـ الـذـيـ أـبـتـغـيـهـ، وـإـلاـ فـإـنـيـ

أنذركم عذاباً وفلاه نازلاً، وهلاكاً قريباً، سترون طلائعه، وتتقدم إليكم دلائله.

قالوا: يا يونس، ما نحن بمستجيبين لدعوتك، ولا خائفين من وعيتك، فأترنا بما تعددنا إن كنت من الصادقين. ولم يطق يونس (ع) صبراً بل صاق بهم ذرعاً، وقطع الرجاء منهم بعد مطأولتهم، وهزئهم به، فدعا الله تعالى أن ينزل عليهم العذاب، فاستجاب الله دعوته في ساعة ما، فخرج يونس من بين أظهرهم ليتنحى عن مكان سخط الله وغضبه، ولم يكدر يبتعد قليلاً عن نينوى حتى وافت أهلها نذر العذاب واقتربت منهم طلائع الهاك. فقد اغبر الجو حولهم، فنظروا إلى أنفسهم فوجدوا أن ألوانهم قد تغيرت ووجوههم قد تشوّهت، فساورهم الخوف وداخلهم القلق، عندما أيقنوا أن دعوة يونس (ع) حق وإنذاره صدق، وأنه سيصيّبهم ما أصاب الأمم السالفة. فآمنوا بالله العلي العظيم واستغفروه، وتابوا إليه وخرجوا إلى شعاف الجبال وبطون الصحاري يضرعون ويبكون ويتوسلون أن يتقبلوا الله توبتهم، وأن يرفع عنهم العذاب. وفرّوا بين الأمم هات وأطفالها، والإبل وفُحلانها، والبقر وعجلها، والغنم وحملانها ثم أعوا الجميع لفارق أولادهم، فصاحت الإمهات ورغت الإبل، وخارت البقر، وثغت الغنم، حتى تلاشت النقوس وصغرت، وذابت الغطسة وامتحنت، وكانت ساعة رهيبة. فبسط الله عليهم عند ذلك جناح رحمته ورفع عنهم سحائب نقمته، إذ كانوا في توبتهم صادقين وفي إيمانهم خالصين الله رب العالمين، وبلغ من توبتهم أن بدأوا برد المطالع بينهم حتى أن الرجل كان ليأتي بالحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده إلى صاحبه، فحبس الله عليهم العذاب، ورجعوا إلى دورهم آمنين مطمئنين، وودوا أن يعود إليهم يونس (ع) ليعيش بينهم رسولاً ونبياً ومعلمًا وإماماً. ولكن يونس (ع) كان قد ذهب مُغاضباً.. ورحل منهم يا نساً.. وقد فارقهم وترك ديارهم طمعاً بأن يجد القوم الذين يفهمون رسالته ويستجيبون لدعوته... وأخذ يضرب في الأرض، ويجد في السير حتى انتهى إلى البحر، وهناك وجد جماعة يعبرون، فسألهم أن يصحبوه معهم، ويحملوه في سفينتهم، فقبلوه على ارتياح للطف سؤاله، وإشراقة وجهه. وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً ومقاماً عزيزاً، ولكنهم ما إن ابتعدوا عن الشاطئ وجاؤوا اليابسة، حتى هاجت الأمواج، وهبّت الأعاصير، وتوقف كل الراكبون في السفينة سوء المصير، فزاغت منهم الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وطن كل منهم أزمه هالك، وفي جوف البحر غارق، ففكروا بأمرهم فلم يجدوا سبيلاً إلى نجاتهم، إلا أن يخفّفوا من حمولتهم، فقالوا كيف؟ فاتّفقوا على الإقتراع... وساهم الجميع ووقع السهم على يونس... ولكنهم صدّوا به تكريماً لما رأوه منه. فعادوا للمساهمة وعاد السهم على يونس.. فضنوا به أيضاً نظراً لمكانته التي احتلها يونس (ع) من نفوسيهم، وعادوا للمساهمة، فعاد السهم عليه. فعلم يونس (ع) أن هذه مشيئة من الله عزّ وجلّ، وأنه من وراء ذلك سرّاً، وأنه في ذلك تدبيراً.. ثم أدرك أزمه استجل في تركه لقومه، قبل أن

يأذن الله سبحانه له بالهجرة، لأن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا عندما يداهم قومهم العذاب، لا يخرجون من بين ظهرانيهم إلا بأمر من الله. وكان على يونس (ع) أن ينتظر قضاء الله فيهم بعد أن أوحى الله إليه أنه معد لهم بعد ثلاثة أيام، فتذكر ذلك يونس (ع) وذكر الله تعالى. فوقف على حافة السفينة وألقى بنفسه في البحر، وأسلم أمره لربه. الأمواج تُقْتَلُ بِهِ بين طيّاتِها وتحشرهُ في دياجير طُلُّمَاتِها، وإذا بحوثٍ ضخم الجثة طوبل الجسم، يتعرّض به حتى إذا دنا منه أمر الله الحوت الممسخ ل بهذه الغاية أن يَبْتَلِعَه على أن لا يأكل لحمه ولا يشتم عظمه لأن الله نبيٌ كريم تعمّل في مفارقة قومه من غير أن يأذن الله تعالى له، فليكن في بطن الحوت فترة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. فابتلاه الحوت وراح يشق الأمواج ويهدى إلى الأعماق، فضاق صدرُ يونس (ع) وفرز إلى الله واستغاث استغاثة الملهوف ولجا إلى الله لجأ المكروب، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إنني كنت من الطالمين فاستجاب الله له دعاءه وأوحى إلى الحوت أن اصعد إلى سطح الماء، واقترب من الشاطئ الأيمن، وألقى بصيافك في العراء. فألقاه الحوت على الشاطئ سقيناً هزيلًا مريضاً عليلاً، فتلقته رحمة الله الواسعة وأنبتت فوق رأسه شجرةً من يقطين أكل من ثمرها واستظلَ بورقها فبدأت تعود إلى العافية وتظهر فيه تباشير الحياة. ولما استوى سليمان ورجع إلى سابق عهده أوحى الله إليه أن ارجع إلى بلدك وموطن قومك وعشائرتك فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان ونبذوا الأصنام والآن يتحسّسون مكانك ويرقبون مجيئك. فعاد يونس إلى قومه وحمد الله وشكره على نعمته لأن الله فارقهم وليس فيهم شاكر للرحمٰن، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر رب الأكوان. سلام الله على يونس إن الله كان من المرسلين المسيحيين. ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى يونس في سورة الأنبياء فقال: (وَذَلِكَ النَّوْنَادُ إِذْ دَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَانَ أَنْ لَنْ نَرَقْدَرَ عَلَيْهِ فَنَذَادَ فِي الظَّلُّمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَرَجَعَ يَنْدَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ زُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء/ 87-88). وفي سورة الصافات: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * أَبَقَ إِلَيَّ الْمُفْلِكَ الْمَشْجُونَ * فَسَاهَمَ وَكَانَ مِنَ الْمُمْدُدَهْمِينَ * فَالْمَقَمَهُ الْجُوتُ وَهُوَ مُلَيْمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبَّهِينَ * لَتَبَدَّلَ فِي بَطْنِهِ إِلَيَّ يَوْمَ يُبْعَثُونَ * فَنَذَبَذْرَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتَنَذَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطَنِينَ * وَأَرْسَلَنَذَنَا إِلَيَّ مِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزْرِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَيَّ حِينَ) (الصافات/ 148-139). وفي سورة يونس: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْرِي

فِي الْحَيَاةِ الدُّرْزِيَّةِ وَمَذَّعَنْدَاهُمْ إِلَّا حِينٌ (يونس/ 98). المصدر: كتاب قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث (داود وسليمان ويونس)